الدين وعلم النفس الحديث

الحياء

لسنا فى حاجة الى اثبات الصلة بين الحياء والدين لان الاحاديث «الحياء شعبة من الايمان» و «اذا لم تستح فاصنع ماشئت» وغيرهما، هى أحاديث معروفة متداولة. ولانريد ان نبحث فى الفرق بين الحياء والخجل والحشمة الخ، لان هذه فروق لغوية لاقيمة لها فى بحثنا هذا. ولكننا نريد —

(١) ان نلفت النظر الى بعض مظاهر الحياء التى كثيرا ما نسيء فهمها (٢) ان نحاول فهم الحياء وتحليله بأن نطبق عليه بعض نتائج ابحاث علم النفس الحديث

ليس الحياء محصورا فى احمرار الوجه واطراق الرأس وأمثالها من المظاهر المعروفة بل انه له مظاهر أخري اقل وضوحا وأكثر تعقيدا. ترى مثلا ان بعض الناس يخاطبك بصوت مرتفع حين لاحاجة لرفع الصوت ويبدى انواعا من الجراءة والوقاحة وعدم الاكتراث ولا داعى الى شيء من ذلك. قد يخطر لك ان فى هذا السلوك شيئا من الغرابة ولكنك لاتشك مطلقا فى كونه جرأة وقلة حياء. ولكنك اذا درست هذا النموذج من الناس ودققت فى ملاحظة سلوكهم يتبين لك ان ما تظنه قلة حياء هو فى الحقيقة مقاومة شدة الحياء ... ارتفاع الصوت هو وسيلة الى اخفاء ما قد يصيب الصوت من الاضطراب بسبب الخجل. والوقاحة ليست الا ستارا تختفي وراءه مظاهر الارتباك الذى يسببه الحياء. وهكذا يمكنك ان تفسر أيضا الجراءة التى فى غير محلها وعدم الاكتراث وغيرها. وترى آخرين اذا دخلوا محلا عموميا — حديقة جروبى مثلا — وكانوا مضطرين ان يخترقوا صفوف الجالسين أخذوا ينظرون الى ابعد نقطة فى المحل كأنهم يبحثون عن شخص ينتظرهم هناك مشتغلين بالتصفير أو البحث فى جيوبهم عن المنديل ومسح جبينهم ورقبتهم ولو كان الفصل شتاء. أو يخرجون الساعة وينظرون فيها طويلا كأنهم يفكرون فى حلول الميعاد وعدم حضور الشخص الذى ينتظرونه. أو يغيرون العصا والقفاز من يد لأخرى. وقد يقفون فى وسط المحل ويدهم على خاصرتهم أو تلاعب سلسلة الساعة أو ازرار الصدرة. واذا كانوا اثنين رأيتهم يتحدثون كما لو كانوا وحدهم

فى المكان و يغربون فى الضحك غير ملتفتين الى أحد من الجالسين. قد تحسد أمثال هؤلاء و تقول لنفسك ان تلك هى الشخصية الحرة القوية التى لا تعرف آلام الخجل، وتتمنى أن يكون لك ولو بعض تلك الحرية. ولكنك لو أوقفت احدهؤلاء بغتة اثناء اختراقه الصفوف لرأيت أن حريته وعدم اكتراثه يتحولان إلى ارتباك ظاهر وصفيره يصير شهيقا ونظره الثابت يضطرب وتراه ينظر إلى عدة جهات فى وقت واحد. وذلك لانك فاجأته بمقاطعة تفكيره الذى كان منحصرا فى مهمته الشاقة — مهمة مقاومة الحياء من مئات الاعين التى يظن انها تنظر اليه. و هناك آخرون اذا صافحتهم ترتعد يدهم فى يدك وتشعر انهم يحاولون التخلص منك، وبعضهم لا يطيق المصافحة مطلقا ويجذب يده بشدة اذا انت اطلت المصافحة. بعض الناس يقولون ان ذلك دليل على خبث الطوية وسوء النية نحو الشخص الذى لا يطيقون مصافحته. و لكننا نعتقد ان هذا احد مظاهر الحياء الذى نسىء فهمه و نخطىء فى تأويله لان هؤلاء يفعلون ذلك دائما ومع كل الناس حتى مع الذين يلتقون بهم للمرة الاولى ولا يعرفون شيئا عنهم، وانما هو نوع من أنواع الخجل. فكما أن بعض الناس يخجلون اذا اطلت النظر اليهم فهؤلاء ايضا يخجلون اذا أطلت مصافحتهم. ومن مظاهر الخجل الكبرياء. فقد عرفت فتاة انكليزية يكرهها اكثر معارفها لتكبرها. ولما خاطبتها فى ذلك اعترفت بان ذلك حياء لا كبرا. وانها اذا اجتنبت الناس أوظهرت كأنها لا تكترث بهم فهى انما تفعل ذلك لتحمى نفسها منهم لانها تخجل حتى من سماع صوتها و وقع أقدامها اذا كان هناك شخص آخر يسمع أو ينظر... وهذا يذكرنى بأحد اقاربى. كنا نقول عنه انه يمشى كالحمامة و ينظر كالارنب ويتكلم كالأفعى. وتؤول ذلك تأويلات مختلفة ولكنه فى الحقيقة كان من الذين يستحون من سماع صوتهم ووقع أقدامهم. و عرفت شابا شرقيا كان مشهورا بكثرة التواضع ينحنى لكل صغير وكبير ولا يدخل قبلك محلا و لو كنت أنت البواب لذلك المحل و يحفظ عددا كبيرا من عبارات الاحترام والمجاملة و يستعملها مع الجميع على السواء، و كان محبوبا عند معارفه واصدقائه ولكن كان فى تواضعه شىء يضايقنى شخصيا. شىء غريب وغير طبيعى، وبعد مراقبته مدة طويلة تبين لى ان التواضع هو سلاحه الذى يتقى به مسببات الخجل، يكثر من التأدب والتواضع ليشغلك عن نفسه و يشغل نفسه عن نفسه. هذه بعض مظاهر الحياء التى لاحظتها

ودرستها شخصيا، وهى تدل على ان الحياء اقوى تأثيرا فى سلوكنا واكثر انتشارا مما نظن. والآن ننظر فى الحياء نفسه .

الحياء فى العربية من اسماء الرحم كما فى المخصص وغيره من كتب اللغة. وفى الالمانية ايضا يطلقون لفظة Scham على الحياء الذى هو بمعنى الخجل و يطلقونه ايضا على الاعضاء الجنسية للرجل والمرأة. ومن معانى لفظة Pudeur الفرنسية الحياء والعفة وعلاقة العفة بالاعضاء الجنسية واضحة. وفى العبارة الانكليزية Private Parts ما يشير الى نفس العلاقة بطريقة غير مباشرة. وفى بعض اللغات العربية الدارجة نجد ما يقرب من ذلك. ففى تونس مثلا يسمون الاعضاء الجنسية للرجل « محاشم » من الحشمة وفى الجزائر والمغرب الاقصى توجد عبارات يمكن ان تدل على الحياء وعلى العورة معا. فكأن الحياء يذكرنا بالاعضاء الجنسية والاعضاء الجنسية تذكرنا بالحياء. . . . ثم اننا نلاحظ ان درجة الحياء تختلف باختلاف الجنس. الانثى تكون غالبا اكثر حياء من الذكر الذى فى سنها. ولعل ذلك يرجع الى ان الانثى اكثر شعورا باعضائها الجنسية من الذكر. الرجل اذا انهمك فى عمل من الاعمال قد ينسى اعضاءه الجنسية وكل ما يتعلق بها مدة طويلة . اما المرأة فلا تستطيع ذلك لان الحيض الذى يتكرر شهريا ويدوم اياما وما يتبعه من الاضطراب الجسمى والنفسى ، يذكرها دائما بانها انثى وأن لها اعضاء جنسية. ثم ان المنطقة الجنسية فى المرأة اوسع منها فى الرجل. ثديا المرأة منطقة جنسية مهمة ليست اقل اهمية من الرحم نفسه. وترائبها ايضا منطقة جنسية، واسفل بطنها واعلى فخذيها وعجيزتها وساقاها ، كلها مناطق جنسية . فجسم المرأة يكاد يكون كله منطقة جنسية او مجموعة مناطق جنسية تفتن وتفتتن وتثير الشهوات و تثار فيها الشهوة . وذلك هو سبب الخصومة بين الدين و الفن فى هذه المسألة . النحت والتصوير يميلان إلى الجمال العارى لابراز الثديين والبطن والفخذين وبقية المناطق الجنسية . والادب مملوء بذكر الترائب المصقولة والنهود المستديرة والكشح اللطيف والعجيزة الضخمة والساق الدرماء. والدين يعتبر كل ذلك « عورة » ويحرم كشفه ويعد كشفه حرام وقلة حياء . فالمرأة اكثر حياء من الرجل لانها تشعر أن كل جسدها عورة وأن النظر اليه لايكون الا نظر شهوة . و نلاحظ ايضا أن الحياء يختلف باختلاف السن. فهو يكثر جدا عند المراهقين ثم يأخذ فى التناقص

شيئا فشيئا عند الشبان، فالفتيان فالكهول فالشيوخ. قد يطرأ على هذا الترتيب الاضطراب والتداخل وقد يكثر عدد الشواذ فى بعض البيئات لاسباب مختلفة . ولكن مما لاشك فيه ان أغلب المراهقين من اكثر الناس حياء واكثر الشيوخ من أقل الناس حياء. وذلك الان المتقدمين فى السن لكثرة معرفتهم واختبارهم للاعمال الجنسية، قد زال منهم الخوف من تلك الاعمال، فهم ينظرون الى المرأة كما ينظرون الى طعام اعتادوا اكله أو ثوب اعتادوا لبسه بدون خوف و لاخجل ولاارتباك. وليسوا كالشبان الذين ترتعد فرائصهم اذا لامس جسمهم جسم امرأة او نظروا الى جزء صغير من ثدييها أو مما فوق ركبتيها . هذا بعض مايمكن ان نصل اليه بالملاحظة والاستنتاج فاذا نحن استعنا بالذاكرة ورجعنا بها الى عهد الطفولة تذكر اننا نسمع كلمة «حياء» لاول مرة عند ما نكون لا نزال بين الثالثة والرابعة و نكشف عن أعضائنا الجنسية أو نلمسها أونلعب بها أو نشير اليها بالكلام فيقال لنا أو لا — لا تفعل ! واذا لم ننته نزجر بالعبارة —(الاتستحى !) أو ما يقابلها فى مختلف اللغات واللهجات. فاذا نحن تمادينا نعاقب بالضرب أو بغيره فنفهم حينئذ ان الحياء هو أن لا نلعب باعضائنا الجنسية وان لاتتكلم عنها واننا اذا فعلنا ذلك نعاقب. ولكننا نستمر على ممارسة ذلك سرا لاننا نجد لذة فى ذلك اللمس واللعب اللذان يصيران فيما بعد استمناء وعادات سرية أخرى. فاذا عثر علينا ونحن نفعل شيئا من ذلك تذكر العقوبة فنخاف ونرتبك و(نخجل) و يقال لنا من جديد ان ذلك الفعل هو عيب وقباحة و (قلة حياء) ولكن الغريزة الجنسية لاتخوف بالعقاب ولاتشبع بالمواعيد. لذلك تبقى قوية جريئة ملحة واذ ذاك يبتدىء العراك بين العقل الظاهر والعقل الباطن أو الذات المهذبة والذات الفطرية . الاولى تنكر الغريزة الجنسية وتكتمها وتتناساها . والثانية تطالب وتلح وتثور . ونتيجة هذا العراك هى الحياء أى الخوف من أن ينتصر العقل الباطن على العقل الظاهر فنفتضح. والدليل على ذلك هو انك لاتكاد ترى للحياء اثرا فى العائلات العصرية المتعلمة حيث تقل الخرافات والتقاليد والخوف من عقاب الدنيا والآخرة، وحيث يتعلم الطفل ان اعضاءه الجنسية هى كغيرها من الاعضاء وليست عورة أو سوءة ويفهم أن سوء استعمالها لايليق، بنفس الطريقة التي بها يفهم ان سوء استعمال فمه أو يديه لايليق

ودليل آخر هو غياب الحياء مدة النوم عندما تضعف رقابة العقل الظاهر الاشياء التى نستحى من فعلها فى اليقظة نفعلها بدون حياء فى المنام. اذا اشتهى الانسان امه أو أخيه مثلا فى حالة اليقظه يستحى ويطرد الفكرة من نفسه فى الحال. ولكن اذا حصلت تلك الشهوة فى الحلم فقد يقضى وطره دون ان يشعر بأى خجل او ندم لان العقل الظاهر يكون اذ ذاك غير منتبه.

أرد دونك يقظانا و يأذن لى ٭ عليك سكر الهوى إن جئت وسنانا

هذا هو منشأ الحياء فاذا تمكن وصار عادة يمتد تأثيره الى كل الشخصية ويصير ضعفا خلقيا عاما او نوعا من الجبن فيستحى الانسان من كل شىء - من التصريح بمبدئه والمجاهرة بعقيدته والتعبير عن آرائه، و يستحي حتى من الحق ويكذب ويخدع ويرائى من شدة حيائه.

اما اهمية الحياء فى الدين فلا صعوبة فى فهمها اذ الجانب العملى من الدين هو المنع والتحريم. والحياء يساعد على ذلك. لان الذى لا يستحى لا يقتنع بسهولة بحكمة الحرام والحلال والمكروه والمستحب بل يشك ويسأل لماذا؟ ويجادل فى آيات الله لانه «لايستحى»

همبورج — طاهر خميرى

الحب

أول الحب فى القلوب شرارة — تختفى تارة وتظهر تاره
ثم يرقى حتى يكون سراجا — لذويه فيه هدى وناره
ثم يرقى حتى يكون مع الايام — نارا حمراء ذات حراره
ثم يرقى حتى يكون أتونا — بحراراته تذوب الحجاره
ثم يرقي حتى يكون حريقا — فيه هلك لاهله او خساره
ثم يرقى حتي يمثل بركا — نا يرى الناس من بعيد ناره
ثم يرقى حتى يكون جحيما — عن تفاصيلها تكل العباره

جميل صدقى الزهاوى